

العداوات بين الموروث التقليدي المزاجي والتقنين الشرعي

د. عبد الحكيم أحمد أبويزان

حتى تلين عريكته للإسلام، ويخضع لهديه لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يُخرجوكم من دياركم أن تبسروهم وتقسطوا إليهم" والبر: حسن المعاملة، والقسط: العدل، كما جاء في آية أخرى: "ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدوا هو أقرب للتقوى".

وهي معادلة صعبة التحقيق عندما يغيب عنصر الإيمان الخالص...

وهذا النوع من العداة الإيجابية يعود على المجتمع بالاستقرار والرفاهية والأمن، وهو معلوم السبب، ومحدود الأثر، ومحمود العاقبة.

إلته عداة لا يحول صاحبه إلى مجرم أو خانن، أو متعصب، كما لا يسبغ من الآخر مشروعية اضطهاده أو ملاحقته، أو استحلال ماله أو دمه أو عرضه إلا بحق، بل إن أثره سرعان ما يزول عن النفس، فيعود إلى أرقى أنواع المحبة والولاء والنصرة والأخوة بعد زوال موجه.

فليسأل كل منا نفسه: هل مر به شيء من ذلك؟ وهل حاول في يوم من الأيام رمي تلك العداوات المجهولة، وغير المشروعة وراء ظهره، وتوظيف مآلديه من مهارات نفسية واجتماعية لغلقها، وهل أخذ منا استطاع أن يصل إلى تفسير مقنع يجيز له المضى في مثل هذه السبيل؟؟.

يستكمل إيمانه حتى يكون حبه للأخر في الله، وبغضه له في الله، وإعطائه في الله، ومنعه في الله... وهو ما يزيل كل هذه الهواجس الخفية، ويطرئ كل تلك المجاهل للباطنة، ويعدئ تشكيل نمط العلاقة الخلافة بين الناس على أكمل وجوها، والمبنية على الطهر والخير. إن البغض الذي يدعو الإسلام أربابه لانتهاجه في بعض الأحوال الاستثنائية ليس بغضاً دينياً بحثاً، ولا كرها شخصياً خالصاً، يسبغ التعدي على الآخر، أو أخذ حقه، أو انتهاك حرمة، بل لحمل المفاوض على ترك الشيء من السلوك أو الاعتقاد والالتزام بالخير والصالح، وعدم الخروج على الجماعة، ولزجر الأخرين به حتى لا يسلكوا مسلكه، ولا ينتهجوا نهجه، وهو مبنئ على تحقيق المصلحة ودرء المفسدة، وهو في ذات الوقت على مراتب ثلاث بعضها أشد نكارة من بعض، كما أن ما يحمله الأخر من بعض الشر يقابل بعلمه وزنته من البراء والكره، ويبقى له من المحبة والولاء بقدر ما لديه من الخير والاستقامة والصالح. وانظر كيف رشد القرآن أتباعه إلى الجمع بين صفة العداة والمودة مع الأخر في وقت واحد في قوله: "عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة"، بل كيف دعا إلى العدل والإنصاف مع العدو

ودعك من مظاهر العداة الأخرى التي تنتضح بها عقول فأم من الناس المصابين بهوس الشك، وتقلب المزاج بتفسير كل ما يصدر عن الأخر من عذوبات النطق والهوس، أو الحركة والسكون بمنطق التأمّر، وحملها على أسوأ المحامل!!.

ونحن إذ نعبر عن امتعاضنا من ذلك كله؛ فإننا لا نطمح إلى تحقيق المثالية في تقنين هذا العداة بالتعاضى والإغفال بقدر ما نطمح إلى أن نكون ردة الفعل العداوية متناسبة مع حجم الجرم الموهوم؛ أو الضرر المفترى، وبمعنى آخر: فنحن سعداء ومحظوظون جداً إذا كان ثمة لنا أعداء من صنف العقلاء الذين يزنون الأمور بما يناسبها.

إن العداوة المبنية على سبب واضح ومباشر سرعان ما تزول وتلاشى، بينما تبقى العداوات المجهولة الأسباب مستعصية الحل في ظل ابتعاد مجتمعاتنا عن مبدأ التعاضى، وفي ظل استمرار الجفاء للقيم الدينية والإنسانية، وسيادة العلاقات النفعية المحضنة التي تحكّم تصرفاتنا مع الأخرين.

جاء في كتب الأدب عن بعض الحكماء: "إذا كانت المؤجدة عن علة كان الرضا مرجواً، وإذا كانت عن غير علة كان الرضا معدوماً". ولقد صدق الشاعر وهو يصورُ حال كثير من حين قال: سن الضغائن آباء لنا سلّفوا

فلن تبيد ولأبائنا أبناء
إن هذه المظاهر قد أصبحت من الأمور المعتادة بين جمهرة المسلمين، والتخلص منها بعد استحكامها شيء مستحيل في وسط يعاني الكساد المادى والروحي، ويعدُّ بعثرة الزمن من أهم خصائصه ومميزاته!! إن هذه الأخطا من العداوات السافرة التي تصلا فضاء العلاقات العامة بين الناس كان لها أثرها السيء المباشر على المجتمعات المتخلفة التي لا تقيم لعنصر الزمن وزناً في إعاقتها عن أي محاولة للتطوير الإداري أو العلمي أو الاجتماعى، وستظلُّ بقعا سوداء على خارطة التنمية البشرية لتلك المجتمعات.

التقنين الشرعي لمظاهر العداة:
أما عن التقنين الشرعي لمظاهر العداة للأخر، فقد علمنا الإسلام أن المرة لا

كثير من الناس من يجد نفسه متغلباً بعبء العداوة لغيره دون أن يعرف السبب في ذلك، وهذا النوع من العداة المجهول غالباً ما يكون ناتجاً عن عداة متوارث قديم لم يولد المرء في زمنه يوصي به السلف الخلف، وفي بعض الأحيان يكون ناتجاً عن تنافر روحي وتناكر جبني يصعب على المرء تفسيره.

تلتقي ببعض الوجوه مصادفة فتتضر منها نفسك، ويرتعش منها بدنك، دون أن تعرف سبباً لذلك، ودون أن يحصل معها أي احتكاك أو تعارف مسبق، فهذه الأرواح جندٌ مجددة فما تعارف منها التلف وما تناكر منها اختلافت" وقد يكونون في الحقيقة من أروع الناس صبغة، وأفضلهم بذلاً.

ومثل هذه الأنواع من العداوات المجهولة المعامل والأسباب غالباً ما يستعصى زوالها من النفوس، خصوصاً إذا ما قمنا بتعاهدها وتمييزها بملاحظة الأخر وتفسير جميع تصرفاته بما يتجه وشعورنا الكريه نحوه على أنه عداة سافرة... وهكذا تنتعش العداوة يوماً بعد يوم، ويزيد الاحتقان مع الطرف الأخر الذي غالباً ما يبادلك نفس المشاعر الموهومة.

يحرص الكثير من أرباب الأسر على جمع الأبناء بل وحتى الأحفاد في مجالس خاصة لتقنينهم فن العداة للأخر، دون ذكر الأسباب، وإرهابهم بحزمة من الوصايا العداوية التي تعد جزءاً من الموروث التقليدي الذي يجب على أفراد الأسرة المحافظة عليه، والوصاية به جيلاً بعد جيل، وفاء للرّاعيل الأول، وتغيب عن أذهان هؤلاء الأرباب الموهومين بمواصله تحقيق الانتصارات على الأخرين، كل ما يترتب على هذه المفصلة الوقحة من الأضرار الدينية والنفسية والاجتماعية التي تلحق بذويهم وقراباتهم قبل غيرهم في ظل تلكهم للقيم، وتكرهم للفضائل والأخلاق. إن عرس مثل هذه العداوات الطائشة في النفوس والميضية على توافقه محققها الأيام والسنون لا تستحق كل هذه المعاناة التي يعيشها الكثير من الأفراد والجماعات فسي ظل تفكك اجتماعى عام ينذر بالانهيار والفرق والانصرام، تُدار فيه صراعات غير أخلاقية يسودها الظلم والكنب والخيانة واستحلال دم الأخر وماله وعرضه بغير حق.

إعلان

يعلن مكتب صحيفة 7 أكتوبر بكليات بني وليد بأنه قد أصبح لديه مقر بمبنى كلية الآداب بني وليد فعلى الإخوة أعضاء هيئة التدريس والطلاب والموظفين الراغبين في نشر مقالاتهم ومساهماتهم على صفحات صحيفة الجامعة أخذ العلم بذلك. ونحن في انتظار هذه المساهمات.
(مكتب صحيفة الجامعة بني وليد)

